دلالة النص فيما ظاهره التكرار

د٠فراس يحيى عبد الجليل الهيتي
اليمن/جامعة تعز/كلية الآداب

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيما لينذر باسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا.

لم يكن القرآن الكريم إلا نعمة من نعم الله على خلقه ، كتاب لا اعوجاج فيه ولا تناقض ،مستقيما في لفظه وفي معناه ،واضحا في دلالته.

وحين يذكرنا الله –تعالى–بقوله :(**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)(النحل: من الآية٨٩)** إنما يريد أن يوضح مكانة القرآن الكريم ،فهو في بلاغته وبيانه يفي بكل متطلبات البشر ،ويعالج ما يعن لهم من مشكلات ،يلمح إلى الهداية والنصيحة والعبرة ،يسوقها بين الحين والحين بوجوه متباينة وأساليب متنوعة ،فهو نمط وحده ،وأسلوب فرد ،جمع فأوعى ،وقدر فهدى. ومن هنا أضحى القرآن الكريم بحق جديرا بالدراسة المتأنية الواعية المستمرة ،ما دام المخاطب به يفكر ويعقل.

والطريق إلى فهم القرآن الكريم عمل يحتاج إلى إعداد السبل ،وتهياة الأدوات اللازمة لذلك ، فقد يتصدى للقران من يخطئ فهمه ، أو يتناوله فلا يدرك ما فيه إدراكا واعيا ، أو ينبو عن أهداف آياته ومقاصدها .

وما يحدث الآن في مجتمعاتنا الإسلامية من انحرافات أو تطرف في فهم القرآن الكريم لهو دليل على هذا الأمر ، فمثلا لما كان عليه المجتمع الإسلامي وقت أن تعددت الفرق الدينية والاتجاهات المذهبية ، إذ كانت التأويلات الضالة – لدى بعض الفرق– معولهم في تطويع النصوص الدينية بما يوافق وجهتهم ويخدم مذهبهم ، وبما تمليه مبادؤهم واتجاهاتهم.

لذلك فان الكشف عن مدلول ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه لابد فيه من الرجوع إلى اللغة .لا يعني هذا أن مراد المتكلم ومقاصده من كلامه يمكن أن تؤخذ من التفسير الحرفي للألفاظ دائما ، وإنما يستعان بها في الفهم الشامل، لأن المقصود النهائي مطابقة قصد المتكلم من كلامه ، وتحري تحقيق أغراضه من خطابه من مجموع التأليف بقدر الطاقة.

ومن المعلوم إن اختلاف المفاهيم – لدى البعض– إنما هو حادث حول النص الديني منذ زمن بعيد ، وقد يؤدي في بعض الأحيان إلى فهم خاطئ لمراد الله تعالى من تشريفه تدلنا على ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه ،عندما استعمل قدامة بن مظعون على بلاد البحرين،فعلم أن قدامة شرب فسكر ،فاستقدمه عمر ،وقال له: يا قدامة ،إني جالدك لشربك، فقال:والله لو شربت –كما تقولون–ما كان لك أن تجلدني .فقال عمر:ولماذا؟قال:لأن الله تعالى يقول:**(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)(المائدة:٩٣)**٠

فأنالا ممن ينطبق عليهم هذه الصفات .... فقال عمر:ألا تردون عليه قوله..؟

فقال ابن عباس :إن هذه الآيات أنزلت عذرا للماضين وحجة على الباقين .فقال عمر :صدقت..[١]

ولتحقيق هذا الغرض فقد بحث الاصوليون قواعد الدلالة على أساس تشريعي ،وبحثها المتكلمون على أساس منطقي ،وبحثها المفسرون على أساس لغوي و دلالي للوصول إلى المعاني المرادة و الكشف عن فنون البيان و دقائق التعبير القرآني. و هذا الأخير هو الذي يعنينا هنا أكثر من غيره و لغرض الوقوف على معنى الدلالة بقدر تعلّقها ببحثنا نبين معنى الدلالة و أقسامها :

الدلالة لغة :لائمة اللغة آراء في الباب الصرفي الذي ينتمي إليه الفعل (دل)،فقد جعله جمهورهم من باب ضرب يضرب بفتح العين وكسرها في المضارع [٢]، وذهب بعضهم إلى انه من باب(نصر ينصر) بفتح عين الماضي وضم عين المضارع [٣] وأرجعه قسم آخر إلى باب (علم يعلم)بكسرها في الماضي وفتحها في المضارع [٤].وفي لفظ (دلالة) لغات ثلاث ،لأنه يقال دلالة ،ودلالة ،ودلالة بفتح الدال وكسرها وضمها ،إلا أن الفتحة أعلى [٥] ،ويقال فيه أيضا –دلولة –بالضم وقلب الألف واوا [٦] .

وقد جاء الفعل (دل) لعدة معان :منها انه يكون بمعنى هدى وارشد ومنه قوله عليه الصلاة والسلام (إن الدال على الخير كفاعله) [٧].

ولما كانت الدلالة –في مفهومها العام –من المباحث المنطقية ،فإننا نلتمس تعريفها الاصطلاحي لدى علماء المنطق ،وقد عرفوها بما يأتي :(الدلالة :هي كون الشيء بحيث يلزم من العلم به أو الظن بشيء آخر ،أو من الظن به الظن بشيء آخر) [٨]

وتنقسم الدلالة [٩] من حيث درجة دلالتها على المعنى الموضوع له إلى قسمين: قطعية ، وظنية الدلالة القطعية ،القطع :هو الجزم بالشيء والتيقن منه .بحيث متى أطلق يكن معلوما المعنى علما جازما لا يحتمل النقيض [١٠] ومن العلماء –خاصة الحنفية – إذ يستخدمون العلم القطعي فإنهم يجرونه في معنيين:أحدهما:ما يقطع الاحتمال أصلا،ومثاله:المحكم والمتواتر

وثانيهما ما يقطع الاحتمال الناشيء عن الدليل ،ومثاله : الظاهر والمشهور.

فالأول يسمونه :علم اليقين .و الثاني :علم الطمأنينة [١١]

والدلالة الظنية :الظن هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض [١٢] بحيث متى أطلق فهم منه معناه فهما راجحا من كان عالما بالوضع .فالظن هنا يراد به ما قام على دليل ترجح به أحد الاحتمالين المفهومين من النص أو اللفظ .لا الظن الذي لا يقوم على شيء أو الذي يعتمد مجرد الاحتمال ،فهذا داخل في جملة الهوى والتشهي المنهي عنه ، فلا يستفاد منه شيء أصلا.[١٣]

أما التكرار في الأساليب والألفاظ– باعتباره ضرباً من ضروب البيان – فظاهرة تفرد القرآن الكريم بها على النحو الذي نلحظه ،وتعرض القرآن الكريم لمستويات رائعة في النظم وجمال الأسلوب . و هذه الظاهرة قد تكون أشد وضوحا في السور المكية منها في السور المدنية ، مع أن السور المدنية لا تخلو منها .

والتكرار ظاهرة لا تخلو منها أساليب الخطاب في اللغة العربية ، إلا أن القرآن الكريم سلك بها طريق غير مألوف عند العرب ، و نحى بها عدة مناحٍ جاءت على غير مقاييس اللغة ، و حملت في سياقاتها نبضات تثير كوامن النفس ، و تلمس حبات القلوب ، و تلك معجزة أسلوبية استقل القرآن الكريم بها.

يقول ابن الأثير :(و بالجملة فاعلم انه ليس في القرآن الكريم مكرر لا فائدة في تكريره ،فإذا

رأيت شيئا منه تكرر من حيث الظاهر،فانعم نظرك فيه ،فانظر إلى سوابقه و لواحقه ،لتتكشف لك الفائدة منه) [١٤] .

وما يدفع توهم التكرار :(أن يعتقد أن مجموع المترادفين يحصل معنى لا يوجد عند انفراد أحدهما، فان التركيب يحدث معنى زائد ا،وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعنى ،فكذلك كثرة الألفاظ)[١٥] .

ومما ينبغي ملاحظته أن التكرار في القرآن الكريم لم يرد على سبيل التماثل مطلقا،وإنما جاء على وجه التشابه ،كثمار الجنة متشابهة في الأشكال الظاهرية وطعومها مختلفة،مما يكسبها مزية المفاجأة وزيادة المسرة وعدم الملال كما في قوله تعالى :(**كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً**)**(البقرة: من الآية٢٥)** وهكذا ما تكرر عرضه في القرآن الكريم له مزية معنوية ولفظية ونظمية هي غيرها في المواضع الأخرى

وأسلوب التكرار في القرآن أسلوب جدير باللفت والانتباه ،ولايعدو هذا الأسلوب أن يكون لونا من ألوان التمكين لخطاب الله تعالى ،يعمل على تعميق المعنى المقصود في أذهان الناس.

ويكمن إرجاع التكرار في أسبابه ،وما يؤديه من وظائف إلى أمرين عامين:

أحدهما– ديني يتعلق بطبيعة القرآن نفسه،فالقرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد،جاء ليربي هذه الأمة ،ويرشد البشرية كافة إلى الدخول في هذا الدين،ومن يمارس التربية يعلم مدى حاجتها إلى التذكير الدائم حتى يستقيم الأمر **(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) (الذريات:٥٥)٠**

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (قّ:٣٧) ٠

فالتكرار لا يأتي اعتباطا ،وإنما لهدف مقصود ،هو تقرير المكرر وتوكيده ،وإظهار العناية به ليكون في السلوك امثل،وللالتزام به أبين.

يقول النسفي(٧٠١هـ) نقلا عن الزمخشري(٥٣٨هـ): (كل تكرير ورد في القرآن فالمطلوب منه تمكين المكرر في النفوس وتقريره) [١٦].

ثانيهما– فني وأدبي ،فللتكرار في القصة وظيفة يؤديها في البناء الفني والأدبي للنص ،سواء أكان في زيادة معانٍ ثانية أم إتمام الصورة الفنية،أو لغيرها من الأسباب ،وهي كثيرة وكلها تصب في مجرى تأكيد المعنى وتوضيحه وإضفاء الحركة والحياة عليه.

ولكن الذي نريد التأكيد عليه هنا هو أننا حين نتلو القرآن فإننا لا نجد تكرارا حقيقيا بالمعنى المفهوم من اللفظ ، وإنما نجد ظاهرة أخرى هي تستحق منا النظر من حيث الجمال الفني في التعبير ،ومن حيث هي لون من ألوان التأثير الوجداني الفريد هي ظاهرة (التنويع) في العرض والتصوير.

إن ما ورد مكررا بلفظه من العبارات ،إنما هو قليل جدا ، أما فيما عدا هذا القليل الذي ورد،فانه في الحقيقة ليس تكرارا وإنما هو (تنوع) ولذا فان الأولى تسمية هذه الظاهرة بالتنويع لا بالتكرار [١٧] .

بعد هذا ننظر إلى سمات التكرار في القرآن:

١ –إن العبارات التي وردت بنصها أكثر من مرة هي قليلة،ومع ذلك فأنها تؤدي رسالة معنوية وفنية في النص التي وردت فيه مثاله:**(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (التوبة:٧٣)،(التحريم:٩)** أي وردت

في موضعين في التوبة ٧٣ وفي التحريم٩،لأمر مقصود هو شحذ الهمة لمقاتلة الكفار والمنافقين،وذلك لاقتضاء السياق في السوريتين لذلك. كذلك من الآيات التي تحمل هذا التكرار ،قول الله تعالى: **(وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ*لأنفال لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)(لأنفال:٧-٨)**

نلاحظ أن التكرار يقع في قوله :(يحق الحق..ليحق الحق) في آيتين متتاليتين ،وهو تكرار الألفاظ المتماثلة في مبناها ومعناها ... فما دلالة هذا التكرار ؟[١٨]وإذا أمعنا النظر في هذا الأسلوب، وجدنا أن تلك الألفاظ تحمل معنى مناسباً للآية التي وقعت بها ففي الآية الأولى يعمل التكرار على التمييز بين ارادتين :

الأولى:هي رغبة المسلمين في أن تكون لهم طائفة غير ذات الشوكة (العير)، لتكثر غنائمهم ،وتظهر خفة الحرب أمامهم وهو موقف عرض زائل .

الثانية:إرادة الله تعالى في أن يتصدوا للنفير ،ولا تلهيهم تلك الغنائم ،إذ يفيد الأسلوب هنا (يحق الحق) التعريض بكراهتهم للقتال ،ويلفت انتباههم إلى أن التصدي للنفير إنما هو من مواقف الأقوياء المتفق مع المبدأ الذي يدافعون من أجله وهو إظهار الدين الحق .

وحينئذ ظهر أن الله تعالى يريد لهم أن يترفعوا عن سفساف الأمور وعن تلك الفائدة العاجلة التي تتمثل في الحصول على الغنائم الفانية الزائلة .وأن يكون اهتمامهم بعظيم الأمر لا بحقيره ،وهو عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة،وإظهار قوة الدين بقوة رجاله عندما يتصدى المقاتلون لذات الشوكة(النفير)،وهذا موقف مليء بالجدة والقوة. وشتان ما بين المرادين!.

ثم يأتي التكرار في الآيات الاتية (ليحق الحق ويبطل الباطل) مؤكدا إرادة الله تعالى في أن وعده بإحدى الطائفتين إنما هو وعد بذات الشوكة (النفير) ليحق الحق ويثبته ويقره وهو الإسلام ، ويبطل الباطل فيزيله ويمحقه وهو الشرك ،حتى يحسم هذا التردد الذي يراودهم ،وقد وعدهم بالنصر إظهارا للطائفة المؤمنة على الكافرين وأنه سيريهم رأي العين كيف يظهر الإسلام على الشرك.

ومن الملاحظ أن الآية الأولى عرضت عليهم الأمرين حتى تهيأ لهم مجال التفكير السليم وحسن الاختيار،ثم أظهرت لهم محاسن الأمر ومساوئه ،أوضحت طريق الغلبة على أعداء الدين ،وما في ذلك من عزة وانفة للمسلمين. ولقد لفت هذا النظم القرآني أنظار الكثير من المفكرين ،وفي ذلك يقول عبد الكريم الخطيب:(النظم القرآني يعرض المشاهد بأبعادها وأعماقها وحركاتها وسكناتها ونطقها وصمتها، وبوسوسة خواطرها وهجسات نفوسها، وخلجات قلوبها، ثم لا يكون ذلك كله إلا بعد محدد من اللقطات ، ولا يكاد يتجاوز أصابع اليد عدّا) [١٩]

٢-إن التنوع في العبارات المتشابهة يأتي منسقا مع التنوع في الخلق والتلون في الموضوع ،مثاله التعبير عن اختلاف الألوان بعبارات مختلفة في الصيغة انسجاما مع اختلاف الألوان وإشارة إليه كقوله:

١) **(وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا)(فاطر: من الآية٢٧)**
٢) **(فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا)(فاطر: من الآية٢٧)**
٣) **(وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ)(فاطر: من الآية٢٨)**

فيكرر العبارة اللغوية الواحدة في موضع بثلاث صيغ ،منوعا لها مع كل نوع من أنواع الخلق،ويلاحظ أنه حينما يكون الحديث عن إنبات الزرع وإخراج الثمرات يأتي بكلمة(مختلفا)منصوبة ومثاله أيضا(**ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ**)(**الزمر: من الآية٢١**) (**وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ**)(**الأنعام: من الآية١٤١**)( )**وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ**)(**النحل: من الآية١٣**)٠

أرأيت الإبداع في التعبير ،أنه بهذا التكرار كان معجزا ،فتنوع الصيغة يلفت الحس البشري إلى ظاهرة التنوع في الخلق فيكرر اللفظ وينوعه مع تكرر الخلق وتنوعه [٢٠] .

٣-إن أكثر الموضوعات التي ورد فيها التكرار و التنوع هي موضوعات العقيدة ،وما كان مسوقا بالأصل لغرض عقيدي ،مثل قصة آدم وإبليس وقصص الأنبياء ، وأخلاقيات الإيمان

- وحدات التكرار في القرآن:

١. **تكرار الأداة**

لقد تعرض ابن الأثير لصورة تكرار الأداة في قوله تعالى :(**فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ *فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ**) (**القصص: ١٨-١٩**)٠ فقوله تعالى :(**فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ**) بتكرار(أن) مرتين ،دليل على أن موسى لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت للأول ،بل كان عنه مبطئا في بسط يده إليه ،فجاء تعبير القرآن موضحا لتلك الصورة[٢١]

وهنا يشير ابن الأثير[٢٢] إلى انه قد جرت مفاوضة بينه وبين رجل من النحويين حول هذه الآية ..إذ قال له : (إن) الأولى زائدة ،ولو حذفت فقيل :(**فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ**)لكان المعنى سواء ،ألا ترى إلى قوله تعالى:(**فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ**)(**يوسف: من** الآية٩٦).وقد اتفق النحاة على أن (أن) الواردة بعد لما وقبل الفعل زائدة .فقال له :إن النحاة لا فتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة ،ولا عندهم معرفة باسرارهما من حيث أنهم نحاة.

ولا شك أنهم وجدوا (إن) ترد بعد(لما) وقبل الفعل في القرآن الكريم،وفي كلام فصحاء العرب ،فظنوا إن المعنى بوجودها كالمعنى إذا أسقطت،فقالوا:هذه زائدة،وليس الأمر كذلك،بل إذا وردت (لما)وورد الفعل بعدها بإسقاط (أن) دل ذلك على الفور ،وانه همّ وأسرع إلى قتله ،وإذا لم تسقط لم يدلنا ذلك على أن الفعل للفور.

وإنما كان فيه تراخ وإبطاء،وقد جاء بها القرآن دالا على وقوع التمهل في الفعل [٢٣]

وهكذا يتضح أن ما توحي به اللغة من خلال الأساليب التي ترد فيها لا تخضع للقاعدة النحوية بقدر ما تخضع للحس اللغوي .والأسلوب الذي اشرنا إليه مع وجود (ان) بعد (لما)وقبل الفعل يوحي بان هناك تباطؤاً في الإيقاع اللفظي ،ومن ثم فإن هذا التباطؤ يحمل التراخي في تنفيذ الفعل ،وأن (أن) ليست زائدة كما يشير النحاة ولكنها جاءت لمعنى.ألا ترى أن الأسلوب القرآني جاء بأفصح بيان يدركه كل من طرق باب النص،وتدبر معانيه،وتلك هي عظمة القرآن في أن يجمع بين البيان والإعجاز،كما نجده في حالات الإطناب بالتكرار يسوقها في بلاغة تتقطع دونها أنفاس البلغاء ،وتقصر عن التعلق بها أصحاب البيان.

٢ .تكرار الكلمة والعبارات:

ومثاله ما جاء في قوله تعالى :(**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ*يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**) (غافر:٣٨-٣٩) ٠

تكرر لفظ (يا قوم)في آيتين متتاليتين .وهو نداء كرره مؤمن آل فرعون نصحا لهم بعد تلك المراوغة التي لقيها من فرعون،ودعا قومه إلى الأيمان بالله الواحد الأحد ،وانه يهديهم إلى سبيل الرشاد.بعد أن انتشرت بينهم أكاذيب فرعون ،وتعددت فتنه وضلالته .وأخذ يبين لهم تلك المتعة الزائلة في حياتهم الدنيا والتي صدتهم عن الإيمان بما جاء به موسى.

كما أن تكرار اللفظ (يا قوم) يوحي حبه لهم وأنهم قومه وعشيرته ،وهم فيما هم فيه من الضلال ،وهو يعلم وجه خلاصهم و أن نصيحته لهم واجبة عليه.إذ يتحزن لحالهم هذا ،ويتلطف بهم ،ويأتي التكرار أيضا بصورة توضح التأكيد لهم بالنزول على نصيحته .

ويشير ابن الأثير إلى أن (هذا التكرار أبلغ من الإيجاز ،وأشد وقعا من الاختصار) [٢٤]

فلو لم يأت التكرار لما ظهر في الأسلوب كل هذه المعاني ،ولما وضحت هذه الصورة الكاملة التي تناسب الموقف ،إذ يستشعر –أيضا– من خلال هذا التكرار تلك الصرخة العالية المدوية ،وهذه الدعوة الملحة ،لأن يعود القوم إلى سبيل الرشد والهداية ،وأنه لواجب يتحتم على المنادى إذا أشفق على قومه من طائلة العذاب عندما يتمادون في غيهم.وهو موقف بلغ من الإشادة به أن سميت السورة التي جاءت بها تلك الآيات (وهي سورة غافر)وسميت أيضا (سورة المؤمن) شعارا لهذا الموقف التقي الذي قام به .

ويأتي التكرار في شكل متتابع ،وفي سلسلة طويلة تنتظم السورة كلها ، كما في سورة الرحمن ،إذ تكرر قول الله تعالى (**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**)،وهذا التكرار المتعدد لم يكن يحدث اضطرابا في الأسلوب أو ثقلا على السمع ،كما يظهر ذلك في الأساليب العادية .تكررت هذه الآية كثيرا ،فاتت عقيب بضع آيات في أول السورة ،ثم عقيب كل آيتين أول آية. وسورة الرحمن تعديد لنعم الله تعالى الظاهرة التي لا يحصيها عد،وآثاره العظيمة التي لا تخفى على احد .وتحدثت كذلك عن دلائل قدرته الباهرة في تيسير الأفلاك وتسخير السفن التي تغمر عباب البحار.وتلفت– أيضا– إلى نهاية هذه الحياة ،وتلاشي الخلائق بأسرها ،ولا يبقى إلا الحي القيوم (**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ**) (**الرحمن:٢٧**) ويأتي تكرار الآية (**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**)في٣١ مرة ،ومع هذا نجدها تترى في أسلوب متجانس متماسك ،في أروع بيانه واحكمه ،لفتا إلى نعم الله التي سخرها للبشرية كلها ،فكلما ذكر الله تعالى نعمة من نعمه ،جاءت الآية المكررة تقفرها وتذكر بالاعتراف بها ،وفي هذا التكرار تحريك لذهن السامع بين آن وآخر ،وبوقع تتفتح له الآذان ،وتعد نفسها لاستقباله .ولا شك أن ذلك ضرب من ضروب البيان والإظهار لالاء الله تعالى .

ولو جاء هذا العرض لنعم الله بأسلوب يخلو من هذا التكرار لغفل عنها كثير من الناس ،وربما كان الالتفات إليها بنفس فاترة وعقل شارد .

وفي ذلك يقول عبد الكريم الخطيب :(وسورة الرحمن التي تكرر فيها (**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**)معرض متكامل لنعم الله ،ولقدرة الله ،ولرحمة الله ولجلال الله وعظمته ..فإذا اطّوف بالإنسان في هذا المعرض من خير ،وينبهه إلى ما ينبغي أن يتزود من هذا الخير ..فلربما

طاف ما طاف ثم خرج صفر اليدين ..لم يحمل من المعروضات إلا صورا وخيالات لا تلبث أن تزول. فكان قوله تعالى :(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**)هو الدليل الذي يصحب قارىء السورة أو سامعها من أولها إلى آخرها ،كلما عرضت آية من آيات الله أو تجلت نعمة من نعمه .طالع عليه هذا الدليل يقول له هذا القول الكريم :(**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**) دون أن يتغير وجهه أو صوته حتى يكون ذلك آلف لقارىء السورة أو سامعها ،فانه طوال الرحلة لا يتغير عليه وجه الدليل ... وفي ذلك ما فيه من تأثير نفسي ،واطمئنان قلبي لا يجده لو طلع عليه –في كل خطوة من رحلته تلك–وجه جديد وصانع جديد)[٢٥] .

ويعتبر التكرار عاملا من عوامل الإظهار ،إذ يتضح من خلال التنقل بين تلك الآيات المكررة أنها تحمل تنبيها إلى آيات الله التي سخرها لعباده ،ولفت للانظار إليها ،وأنه تعالى يقرر أمام ناظرهم تلك المقدرة التي تفرد بها تعالى في الخلق والإبداع.

وفي ذلك– أيضا – يقول ابن قتيبة : (ثم اتبع ذكر كل خلة وصفها بهذه الآية وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ،ليفهم النعم ويقررها بها ،وهذا كقولك ..الم أبوئك منزلا وأنت طريد؟أفتنكر هذا؟) [٢٦]

فأفاد التكرار معنى زائدا عن المعاني التي تحملها الألفاظ ،إذ يفهم منه تعدد النعم وتأكيدها.

وفي سورة (الكافرون) تكررت الآيات ،وحسن تكرار النفي فيهما وان كان يجزؤ ذكره مرة واحدة ،إلا أن التكرار يحمل إيضاحات ومفاهيم لا تتأتى بدونه.

وقد ذكر العلماء وجوها في هذا التكرار ودلالته ،فابن قتيبة يرجع ذلك إلى أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة ،وإنما كان نزوله شيئا بعد شيء.

فكان المشركين قالوا له :اسلم ببعض آلهتنا حتى نؤمن بإلهك ،فأنزل الله :(**لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ*)وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) (الكافرون:٢–٣)** ،ثم غيروا مدة من المدد،وقالوا :تعبد آلهتنا يوما أو شهرا أو حولا ،ونعبد إلهك يوما أو شهرا أو حولا ،فانزل الله (**وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ*)وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)(الكافرون:٤–٥)**٠

على شريطة أن تؤمنوا به في وقت وتشركوا به في وقت [٢٧]٠

وقد ذكر المرتضى في أماليه أن طعونا وجهت إلى كلام ابن قتيبة الذي يعني به (إنكم إذا كنتم تعبدون الهي على هذا الشرط ،وهو عبادة آلهتكم يوما أو شهرا أو حولا ،فإنكم لا تعبدونه أبدا)وهذا الكلام يقتضي شرطالا يدل عليه ظاهره ، وأن ما نفاه الرسول عن نفسه

(ولا أنا عابد ما عبدتم)مطلق غير مشروط ،فكذلك ما عطف عليه مطلق غير مشروط.

ويقول المرتضى :إن هذا الطعن غير صحيح ،لأنه لا يمتنع البات شرط وان لم يكن ظاهر الكلام ،ولا يمتنع عطف المشروط على المطلق ،ثم(يذكر ثلاث إجابات :أولها... ما حكي عن أبي العباس ثعلب أنه قال:إنما حسن التكرار لأن تحت كل لفظه معنى هو ليس تحت الأخرى وتلخيص الكلام ...قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الساعة وفي هذه الحال ،ولا أنتم عابدون ما أعبد في هذه الحال أيضا ،فاختص الفعلان منه ومنهم بالحال ،وقال من بعد ..ولا أنا عابد ما عبدتم في المستقبل ،ولا أنتم عابدون ما أعبد فيما تستقبلون ،فاختلفت المعاني ،وحسن التكرار لاختلافها.

ثانيهما...جواب(القراء) أن يكون التكرار للتأكيد ..كقول المجيب مؤكدا ..بلى بلى ،والممتنع مؤكدا ..لا لا .

ثالثها ...إن النبي قال للكفار ولا اعبد آلهتكم ،ومن تدعونه من دون الله ،ولا أنتم عابدون الهي ،فان زعمتم إنكم عابدون الهي فانتم كاذبون ،إذ كنتم من غير الجهة التي أمركم بها تعبدونه،فانا لا أعبد مثل عبادتكم ،ولا أنتم مادمتم على ماأنتم عليه– تعبدون مثل عبادتي...) [٢٨] ،كما يرد التكرار في الاسم الظاهر فانه يأتي كذلك في الضمائر ، كما في قوله تعالى :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) (النمل:٥) ٠

وجاء تكرار الضمير ليحقق الخسارة ويؤكدها ،فالضمير الأول (هم) يفيد تعيين هؤلاء الذين لهم سوء العذاب ، والضمير الثاني يعمل على تأكيد إلحاق العذاب بهم ،وتحقيق الخسارة ٠ والى جانب ما يفيده التكرار من معاني التأكيد والتحقيق ،فانه يضفي انتظاما في سياق الأسلوب ،وقد يختل النظم بدون هذا التكرار

٣.<u>التكرار في القصة</u>:

والتكرار في القصة هو أهم ما يميز التكرار في القرآن الكريم فهو ظاهرة فنية ودعامة تربوية ،لها عدة أهداف جاء لإبرازها ،إذ ليس المراد من التكرار والتنويع مجرد العرض والمعرفة أو التشويق والتسلية ،يقول الزركشي :(إن عادة العرب في خطاباتها إذا اهتمت بشيء أرادت تحقيقه وقرب وقوعه أو قصدت الدعاء إليه كررته توكيدا ،وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه أو الاجتهاد في الدعاء بحيث تقصد الدعاء ،والقرآن نزل بلسانهم فكانت مخاطباته فيما بين بعضهم وبعض ،وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة) [٢٩] فالكلام إذا تكرر تقرر في النفس وثبت في الصدر ٠[٣٠]

ولتكرار القصص القرآني سمات بالغة الأهمية ،منها أن العبارات كثيرا ما تأتي متشابهة بل متماثلة في مخاطبة الأنبياء لأقوامهم ،وفي جواب أقوامهم لهم بنفس العبارات ،وهذا لم يرد اعتباطا ،وإنما هو مقصود قصدا .

فمثلا في قصص نوح وهود وشعيب وصالح عليهم السلام مع أقوامهم المكذبين ،ترد ذات القصة لكل من الأنبياء هؤلاء –عليهم السلام– في سورة الأعراف وهود والشعراء بما يوهم لأول وهلة أن هناك تكراراً في المقررات وفي المجموع أو تكرار لقصة جماعة واحدة مع نبيها وليست هي قصص متعددة ومختلفة .

فكان عرضها يتم بطريقتين :تنويع في عرض المجموعة المتشابهة من القصص في كل سورة على حدها مع إبراز التشابه في موضوعاتها جميعا لدى عرضها في السورة الواحدة. وتنويع في عرض القصة الواحدة من سورة إلى سورة أخرى مع اختلاف في التلوين تبعا لاختلاف جو السورة [٣١] . مثال ذلك :في سورة الأعراف جاء :**(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)(الأعراف: من الآية٥٩) ،(قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الأعراف:٦٠)**

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ) (الأعراف:٦٥)

(قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (لأعراف:٦٦)
(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)(لأعراف: من الآية٧٣)
وهكذا في التعقيب على كل قصة .
وكذا مع نوح /٦٤ وهود /٧٤ وغيرهما
وهكذا حينما نقرا قصة كل رسول في السور المختلفة ،نجدها تتنوع بحسب أجواء السورة وبما يتناسق معه.وهذا يؤكد لنا أن إيراد هذا اللون من القصص بأسلوب التكرار والتنوع إنما هو مقصود لأداء وظائف معنوية مهمة فكأنما هي رسالة واحدة مكررة ،وأن أختلف الزمان والمكان وأختلف الأشخاص واللغات فهي جاهلية واحدة مكررة ،و ان اختلفت
اللغات والأشخاص وتباعد الزمان واختلف المكان واختلف الأشخاص واللغات .
ومن الملاحظات أن التكرار آت باللفظ والمعنى ،وواقع إما في آية واحدة ،أو في آيات متجاورة ..وقد يأتي التكرار على غير هذه الصورة ،إلا أنه لا يعتبر من قبيل التكرار الذي نحن بصدده .
فمثلا في قول الله تعالى :(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ) (البقرة:١٧٠)
وقوله تعالى :(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ) (المائدة:١٠٤)
والسورتان تفصل بينهما سورتا آل عمران والنساء ،وهما من طوال السور ،إلا أن السورتين تأتيان بأسلوب مكرر ،ففي السورة الأولى **(بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ)**٠ ومن مفهوم هذا الأسلوب انه ليس ثمة ما يمنع من رجوعهم عن إتباع آبائهم ،إذ لم يبلغوا الدرجة القصوى في دعوى إيمانهم بالأوثان ،فاستعمل القرآن في نفي هدايتهم أسلوب يناسب حالتهم التي لم تكن تبلغ النهاية في الرجوع عن إتباع آبائهم .
والآية تنادي بإتباع ما انزل الله ،وهم يريدون ان يتبعوا ما وجدوا عليه الآباء والأجداد .
أما التكرار في الآية الثانية **(قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ)** فالأسلوب فيه يفيد أن الكفار قد بلغوا النهاية في الاعتداد بالأوثان ،ولذلك أظهر الأسلوب إنهم قد قطعوا طريق العودة على أنفسهم (قالوا حسبنا)كما استعمل الأسلوب في نفي هدايتهم ،نفي العلم عن آبائهم (أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ..) وقد أشار الكرماني إلى هذا إذ يقول :(ان نفي العلم أبلغ في درجات اليقين من نفي العقل ،لأن العلم فوق العقل في حالة اليقين)[٣١]
فالتكرار هنا ضرب من ضروب المناسبة في استعمال الألفاظ ،فلكل حالة أسلوبها الذي تقتضيه ،ولا عجب في ذلك فالقرآن أدق وزنا لمعاني الألفاظ ،وأكثر مراعاة لمناسباتها .وإذ كانت تلك الألفاظ قد تشابهت في اشكالها ،فأنها قد أدت معاني ومفاهيم تختلف باختلاف مواقعها ومناسباتها ،وهكذا يأتي تكرارا للفظ دون المعنى .
ومن ناحية أخرى ،فان التكرار يأتي في اللفظ والمعنى ولا يعد تكرارا ما جاء في المعنى دون اللفظ كما في قول الله تعالى **(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران:١٠٤)**
فالدعوة إلى الخير ،والأمر بالمعروف معنيان مكرران ،ولكننا نقصد في هذا الباب التكرار في

اللفظ وفي المعنى معا .
وبعد هذا نقول أن التنويع لا التكرار هو الظاهرة الحقيقية في القرآن ،وأن من إعجاز القرآن أن يعرض الموضوعات التي يكرر ذكره للتذكير والتربية والتوجيه ،وبهذا القدر المعجز في التنويع بحيث لا تتكرر صورتان متماثلتان أبدا في القرآن على كثرة المواضع التي يرد فيها كل موضوع ،مع ما في ذلك من الحكمة بالنسبة لكتاب يقرا على الدوام ويتلى للتقرب به ،وأن التنويع ذاته لجمال ..انه يذهب على النفس الملال .

الهوامش

١.الموافقات في أصول الشريعة :٣٤٩/٣
٢.لسان العرب ،وتاج العروس –دلل
٣.لسان العرب ،وتاج العروس ،والمصباح المنير –دلل
٤.المصباح المنير –دلل
٥.تاج العروس –دلل
٦.لسان العرب ،وتاج العروس –دلل
٧. سنن الترمذي :٤١/٥
٨. شرح شوقي على متن الفناري في المنطق :٢٧
٩. الدلالة تنقسم الى قسمين :لفظية وغير لفظية وكل منهما تنقسم إلى ثلاثة اقسام :وضعية وعقلية وطبيعية
١٠.مختصر المنتهى :١٠/١ ،شرح الكوكب المنير :٧٦/١
١١.ميزان الأصول :١٠٦/١
١٢.التعريفات:٦٢
١٣.علم التفسير :١٤٦
١٤.المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر :١٨/٣
١٥.البرهان :٤٧٧/٢ ،الإتقان :١٩٩٩/٤–٢٠٠٠
١٦.تفسير النسفي :١٠/١
١٧.دراسات قرآنية :٢٥٤
١٨.التفسير الوسيط :٥١/٦–٥٢
١٩. من قضايا القرآن :١٤٤
٢٠.علم الإعجاز :١٤٨
٢١ و ٢٢. المثل السائر :١٣/٣
٢٣.المصدر نفسه :١٣/٣ وما بعدها ،التعبير القرآني :١٠٧
٢٤.المثل السائر :١٩/٣
٢٥.من قضايا القرآن :١٣١–١٣٢.وانظر للمزيد :خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية :٣٢٩/١
٢٦. تأويل مشكل القرآن :١٨٦
٢٧.المصدر نفسه
٢٨.امالي المرتضى :١٢٠/١
٢٩.البرهان :٩/٣
٣٠. علم الإعجاز القرآني :١٥٥
٣١.اسرار التكرار في القرآن:٢٤٨

المصادر والمراجع

١. أسرار التكرار في القرآن ،الكرماني،تحقيق :عبد القادر عطا ،دار الاعتصام
٢. الإتقان في علوم القرآن ،السيوطي ،تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار التراث ١٩٨٧
٣. أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)،الشريف المرتضى ، تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية – القاهرة،١٩٥٤

٤. البرهان في علوم القرآن :الزركشي،تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم،دار الفكر ،ط ٣ ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠
٥. تاج العروس من جواهر القاموس :للزبيدي ،محمد مرتضى ،تحقيق :عبد الستار أحمد فراج وآخرون ، بلا طبعة وتاريخ
٦. تأويل مشكل القرآن ،ابن قتيبة الدنيوري ،تحقيق :السيدأحمد صقر ،مكتبة الباب الحلبي – القاهرة.
٧. التعبير القرآني : د. فاضل السامرائي ،بغداد ،بيت الحكمة ،١٩٨٨ م
٨. التعريفات :السيد الشريف الجرجاني ،مصر،المطبعة الخيرية ،١٣٠٦ هـ
٩. تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)بيروت ،دار الفكر.
١٠. تفسير الوسيط للقرآن الكريم :د. محمد سيد طنطاوي :مطبعة السعادة –القاهرة ،ط ٢ ،١٩٨٦ م .
١١. دراسات قرآنية :محمد قطب ،بيروت،دار الشروق ،١٩٩٣م
١٢. سنن الترمذي :محمد بن عيسى ،تحقيق :أحمد محمد شاكر ،دار الكتب العلمية ،بيروت– لبنان ،ط ١ ،١٩٨٧
١٣. شرح شوقي على متن الفناري في المنطق : أحمد عبدالله الشوقي ، مطبعة الحاج محرم افندي ، ١٣٠٩هـ
١٤. شرح الكوكب المنير :ابن النجار الحنبلي ،تحقيق :محمد الزحيلي ونزيه حماد ،دمشق ،دار الفكر،١٩٨٠ م
١٥. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية :د.عبد العظيم إبراهيم المطعني :القاهرة ،مكتبة وهبة ،١٩٩٢ م
١٦. علم الإعجاز القرآني بين الفن والتاريخ :د.خليل رجب حمدان ،مركز عبادي للنشر ،صنعاء ،ط١ ،٢٠٠١
١٧. علم التفسير أصوله وقواعده :د. خليل رجب حمدان ،مركز عبادي للنشر ،صنعاء ، ط١ ،٢٠٠٢
١٨. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل :الزمخشري،القاهرة ،مصطفى البابي الحلبي ،١٩٦٦ م
١٩. لسان العرب :ابن منظور ،بيروت ،دار صادر ،١٩٥٦ م
٢٠. مختصر المنتهى : ابن الحاجب ،وشرحه لعضد الدين الا بجي ،القاهرة ،الفجالة ،١٩٧٣ م
٢١. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ،ابن الأثير ،مطبعة النهضة،القاهرة–١٩٦٢ م
٢٢. المصباح المنير : أحمد محمد الفيومي ،مطبعة الباب الحلبي –مصر
٢٣. من قضايا القرآن :عبد الكريم الخطيب ،دار الفكر العربي ،القاهرة ،١٩٧٣ م
٢٤. الموافقات في أصول الشريعة :الشاطبي ،المكتبة التجارية –القاهرة
٢٥. ميزان الأصول :السمرقندي ،بغداد الخلود ،١٩٨٧ م